الهزيل

الأنين مكتوم, والأمل ملبد بغيوم..

يجر ساقيه الهزيلتين على الطريق الإسفلتي, ومحطة القطار قابعة مستفزة عند الطرف الآخر.. في دخيلته, ارتسمت صورة مقيتة لهذا الطريق؛ يراه حية شريرة, تتلوى, تتمطى, تبدو بلا نهاية, ليصل في النهاية ممتقع الوجه متهالك القوى, يئن أنينا خافتا, يجاهد أن يخنقه؛ فلا يصل لأذان من غصبتهم الظروف؛ ليستقلوا قطار السادسة..

والشمس -في أقصى الشرق- أنثى تتدلل, تناوش الدنيا من خلف غيمات شتوية, تطل وتتوارى. والصباح الوليد يستجدي الصبر, يجاهد لينسلخ من مشيمة ليلة معتمة, يتصيد بواكير الأشعة, يغزلها ابتسامة دافئة تزين محياه الواهن المرتعد من لفحات البرد..

يسعل, فيأتي سعاله حادا, يهتك السكينة, ويشرخ قدسية لطالما استشعرها في صباحات قريته. تشرئب أعناق الكلاب الملتفة حول نفسها, المضجعة أمام البيوت اللبنية المتهالكة المتناثرة علي حواف الطريق. يقف ريثما تخف النوبة, وينقشع احتقان وجهه, وتستكين عروق رقبته المثارة خلف جلده الرقيق.. يجرب نفسه مجددا في التقاط الأنفاس ملتمسا الحذر. يتذكر صباه حينما كان الجسد فتيا لا يعبأ بشيء, حينها كان يلتقط النسمات البكر من أكمامها.. الآن النسمات سياط تنهشه, تمزق أنسجته وخلاياه, تستفز نوبات السعال؛ فتشعره بالنزف يقطر داخله, وبالتصدع ينتشر بأركانه..

يرمق الطريق الممتد, بنظرة مسافر أعياه الترحال؛ فيئن من ألم يدق في عظامه, على أشده أسفل الظهر.. يعاود الجر. ما زال في الأربعين وجسده مستنقع

أمراض. لديه إحساس -لا يفارقه لحظة- أنه على وشك المغادرة. مسألة وقت.. زوجته لديها نفس الإحساس..

قالت بينما يستعد للرحيل:

"الجو شديد البرودة.. والنوبة تداهمك طوال الليل.."

صمتت..

يعلم ما يعتريها من وجل..

يهرب من سهام الشفقة المنهمرة من عينيها المكتحلتين إلى سكينة طفليه اللذين يغطان في النوم.

"يجب أن أعمل.."

تمتم بلا صوت..

طاقة ما تعاود الشحن, يستشعر دبيب تدفقها في الأوردة والشرايين, وموجة من التحدي تتولد, تبرق بها عيناه. يلثمهما ويغادر..

يصل المحطة بعد عناء, يتهالك على أول مقعد يقابله, خلاياه المكدودة المتصلبة تتهاوى وترتخي, يعتريه ذلك الارتياح الذي يعقب الفشل, من محاولة مضنية استنزفت الروح والجسد, ولهذا كان جسده الضئيل الهزيل ممتنا للمقعد كصديق رحيم مد يد المساعدة.

تندلع في المكان صيحات طيور تغادر أعشاشها, تزعق معترضة, ملت ليل لا يريد أن ينقشع ويذهب إلى حال سبيله, تشهد الأبدية على ما تكابده من شمس الشتاء النزقة المراوغة.. يصم أذنيه.. يكتفي بما به من ضجيج وصراخ..

ينظر شمالا حيث يأتي القطار, فيرتد بصره خائبا؛ فالضباب والظلمة اللذين تكاثفا في تحد مرهق يحجبان معالم الرؤية. ولا أحد على الرصيف سواه, فنادر ما يجد رفيق في هذا الوقت المبكر, أما الرصيف المقابل فتفترش أرضيته امرأة تتشح

السواد ممن يتاجرون في الجبن والسمن, تبدو من أغراضها أنها في الطريق لسوق البلدة المجاورة؛ لبيع ما يمتلئ به الإناء المتخم من أشياء.. لم يكن جديدا أن يتأخر القطاران عن الموعد؛ قطار الشمال وقطار الجنوب, وسرعان ما استسلم لإغفاءة فرضها الجسد المنهك..

ينتبه من غفوته.. يجد المرأة تتدلى من الرصيف المرتفع بجسدها المكتنز إلى الأرض؛ لتحضر "حواية قش" أسقطها الهواء بين القضبان.

تلتقط أذناه الرهيفتان صوت القطار القادم, يحذر المرأة منزعجا..

ترهف المرأة السمع؛ فيهاجمها الضجيج المتزايد, ويخترقها هلع وخوف يهتكان رباطة الجأش ويشدان أوتار الأعصاب. مرتعبة تحاول الصعود للرصيف. يخفق ذراعاها المضطربان بفجائية الموقف في رفع الجسد الممتلئ. يخفق قلبه للمحاولة الفاشلة ويستشعر عقله -المنتفض من سبات لحظات الوهن- خطورة الموقف.

المرأة حبيسة الرصيفين الممتدين, ولا يدري أي القطارين في الطريق.. يدقق النظر في كلا الاتجاهين لسبر أغوار الغلالة الضبابية, يرتد بصره مجددا خائبا وهو حسير..

يستجمع قوته, يمد يديه, تتشبث بهما كفيها المكتنزتين.. تتصلب عضلاته الضامرة, تتنافر عروق رقبته من مخابئها, يشعر بثقل الجسد يخلخل فيه ترابط بنيته, وبروحه تكاد تفر من وطأة المكابدة, ولا يتحرك الجسد الضخم قيد أنملة.. وأخيرا يفشل.. يتراخى جسده في أنين موجع هذه المرة, وتداهمه نوبة السعال في غير وقتها..

يقترب الضجيج, فيبدو وكأن القطار على بعد أمتار.. تقف المرأة حيرى.. يصفر القطار.. يلعن صدى الصوت في قرارة نفسه, لما يحدثه من التباس بين الأصل والزيف.. يمد يديه مجددا.. تتصلب عضلاته.. تتنافر عروقه.. يفشل.. يشعر بالضآلة.. بالتقزم.. ويعلو الهدير.. فجأة تداهمه فكرة أن كلا القطارين في الطريق, وأن انتهاء أجل المرأة لا ريب فيه..

المرارة تملأ حلقه, يبصقها, يبتلعها, ما زالت باقية في إلحاح يستفزه ويرهقه.. لا يحتمل ذنب فشلة, ولا ما ينغص عليه حياته, لديه فائض كافي من الإحساس بالذنب, ولا يريد المزيد..

يمد يده.. يتصلب.. يفشل..

فزعة تنظر إليه كخيط واهي للنجاة ليس أمامها غيره..

يهتف بها: اجري..

يخطر في باله أنها لو جرت, لربما نجت من حصار الرصيفين, وتصل إلى بر الأمان, بيد أن المرأة لم تستجب, فقط الضجيج المتنامي هيمن على كل شيء.. ويظهر القطاران قادمان من كلا الاتجاهين في ذات الوقت.. لا يحتمل.. يسقط..

يسترد وعيه, يجد المرأة على رأسه تجفف عرقه المتصبب, ومن حوله جموع الناس.. يظن أنها الآخرة, وأن صرعى القطارات يبغون القصاص منه لضعفه وهزاله.. تداهمه نوبة السعال.. يمد يده في تلقائية بحثا عن الحبات المهدئة.. يبتلع إحداها.. المرارة التي تركتها في حلقه نبأته أنه ما زال على قيد الحياة..

ينظر متسائلا.. تجيب المرأة:

"التزمت المنتصف, فلم يمسني أي من القطارين بسوء.. ما زال في العمر بقية.."

يعاود جر قدميه في اتجاه قريته, ابتسامة عذبة تلون محياه, وأمل يشرق في نفسه, كما أشرقت أخيرا شمس الشتاء المتباطئة, ولونت محيا السماء بالنور والدفء..